بسم الله الرحمن الرحيم
الجزء الثانى والعشرون
سورة الأحزاب
من الآية ٣١ حتى نهايتها الآية ٧٣
وسورتا
سبأ - فاطر
وسورة ياسين
من بدايتها حتى الآية ٢٧

obeikandl.com

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

من تطع وتخضع لله ولرسوله وتعمل صالحًا، يُضاعف لها الثواب مثلما يُضاعف لها العذاب عندما تأتى بفاحشة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ فى حياتها الدنيا وفى الآخرة ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ فى تكريم الله لكنَّ، وفى المسئولية التى عليكن ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ إن خفتن الله. قال الشوكانى: [أى إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء] لأنكن تقيات، وزوجات خاتم النبيين ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ لا تلنَّ القول من باب فرط الأدب والحياء، فيطمع فيكن المنافقون ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ وقلن القول الحسن المحمود ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ الزمن البيوت، ولا تخرجن إلا لحاجة ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ قال مخلوف: [البَرجَ هو سعة العين وحسنها] وصارت الكلمة تعنى التزين والتجمل، والجاهلية الأولى هى الجاهلية القديمة، وتعددت الأقوال فى زمانها، ولكن قال المراغى وغيره من المفسرين إن الجاهلية حالة وأوضاع وقيم وطريقة حياة، فهى بذلك ليست محددة بزمان ولا مكان، ولفظ المراغى: [الجاهلية الأولى هى الجاهلية القديمة؛ جاهلية الكفر قبل الإسلام، وهناك جاهلية أخرى؛ هى جاهلية الفسوق فى الإسلام] فالمعنى هو نهيهن عن اتباع ما كانت تفعله النساء فى الجاهلية الأولى، وعليهن التزام اللباس الشرعى الذى جاء به الإسلام ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لأنكن أجدر من يفعل ذلك، ولأنكن قدوة لجميع المؤمنات ويريد الله أن يمنعكن من فعل ﴿ الرِّجْسَ ﴾ الذنوب ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ أزواج الرسول (ﷺ)، وهناك روايات عديدة أن النبى (ﷺ) قال عن فاطمة وعلى

والحسن والحسين أهل البيت، ويُسمون أهل العباءة أو أهل الكساء[1]، والجمع بين أزواج الرسول (ﷺ) وأهل العباءة أرجح ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ من الذنوب ومن عمل ما هو ليس الأولى والأحسن، واحرصن على العمل بآيات القرآن وسنة الرسول ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الذين يسلمون وجوههم لله ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ الطائعين فى خضوع وتسليم عن رضًا داخلى ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ فى القول والفعل ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ على التزام الطاعات واجتناب المنهيات، والابتلاءات ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ الذين يعرفون أن المال مال الله، وأنهم مستخلفون فيه ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ الذين يحرصون على التقرب من ربهم بالصيام الذى يؤدى لتقوى الله ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ بالقلب وباللسان وبالجوارح، كل هؤلاء ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

* * *

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) ﴾

(١) لأن الرواية تقول إنه (ﷺ) جمعهم تحت عباءته، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى» رواه أحمد.

ما يجوز لمؤمن ولا مؤمنة أن يختار لنفسه أولنفسها خلاف ما أمر به الله أو أمر به رسوله، ومن يفعل ذلك ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ قال المفسرون: إن الآية نزلت فى زينب بنت جحش بنت عمة رسول الله (ﷺ) أميمة بنت عبد المطلب عندما خطبها لزيد بن حارثة مولاه، وكان وقتها ابنه بالتبنى بعد أن حرره[1]، فرفضت ورفض أخوها لحسبها وجمالها، فلما نزلت الآية، قبلا الزواج وقالا رضينا يارسول الله، فتزوجها زيد (رضي الله عنه)، ولكن لم ينجح الزواج، فبدأ زيد يشكو لرسول الله (ﷺ) ويطلب منه الإذن بطلاقها ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أنعم عليه بنعمة الإسلام وبصحبة رسوله ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بأن أعتقته وتبنيته، ثم زوجته بنت عمتك زينب بنت جحش ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ لا تطلقها، وخاف الله ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ تضمر فى قلبك وحى الله لك بأنك ستتزوجها بعد أن يطلقها زيد ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ تخاف من تعيير قريش لك ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ والله وحده هو الجدير بالخشية ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً ﴾ الوطر فى اللغة: بلوغ منتهى ما فى النفس من شىء، فالمعنى بلغ نهاية احتماله لها وصبره عليها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أمرناك بالزواج منها؛ لكى لا يتحرج المسلمون من الزواج بمطلقات أو أرامل من كانوا يتبنونهم بعد النهى عن التبنى[2] ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾.

***

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً (٤٠) ﴾

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ من ضيق ومشقة ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ من زواجه بزينب بنت جحش ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ لا حرج فيما أحل الله ولم يُحرم، فالله هو

(١) وقع زيد بن حارثة فى الأسر، وباعه من أسروه كعبد، واشترته خديجة (رضي الله عنها) ووهبته للرسول (ﷺ)، ولما جاء أبوه وعماه لفدائه وأخذه، رفض وتمسك بالبقاء عند الرسول (ﷺ)، فعندئذ حرره وتبناه.

(٢) طعن اليهود فى زواج الرسول (ﷺ) من زينب، وقالوا تزوج من زوجة ابنه، ومازال المستشرقون من اليهود والمسيحيين ومن يردد أصداءهم يطعنون فى ذلك، رغم أن الفاروق (رضي الله عنه) وعائشة ـ أكثر زوجات الرسول غيرة عليه (رضي الله عنها) كانا يقولان بثاقب نظرهما: لو كتم رسول الله (ﷺ) شيئًا مما أُوحى إليه من كتاب الله لكتم ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾، وكانت زينب (رضي الله عنها) تتباهى قائلة: زوجنى الله محمداً.

الذى يحلل وهو الذى يحرم، ليس الناس بتقاليدهم وأعرافهم وعقولهم ومداركهم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ قضاءً مبرمًا لا رجعة فيه . . فالأنبياء ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ثم عادت الآية تؤكد ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ حتى يحرم عليه الزواج من زينب ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ فلا نبى بعد محمد (ﷺ) ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾

جاء فى الحديث «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» متفق عليه، وجاء «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره، مثل الحى والميت» رواه البخارى . . وليس الذكر مجرد التلفظ باللسان أو تحريك المسبحة، ولكن الذكر الصحيح ما يستقر فى القلب، وينفعل به ليضبط القول والفعل، ومنه التسبيح ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره، والمقصود طوال اليوم، واعلموا واطمأنوا أن الله يصلى عليكم، أى يرحمكم، وأن الملائكة تصلى عليكم، أى تدعو الله أن يرحمكم ويغفر لكم ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ حتى ينجيكم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى والطريق المستقيم ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ فأىّ فوز وسعادة ورضا حين يلقانا رب العالمين بالتحية والسلام ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾

أرسلناك يا أيها النبى للناس برسالة الإسلام لتكون شاهداً يوم القيامة عليهم ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بما ينتظر المؤمنين من نعيم ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالجحيم لمن تكبر وكذَّب وكفر ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ تدعو إلى الله بأمره ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ تنير الطريق لمن أراد أن يسلك سبل الله

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بفضل الله الكبير ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يريدون أن تنحرف عن رسالتك ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ لا تنشغل بأذاهم عن تبليغ رسالتك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾

دائمًا يوصي القرآن بالمرأة ويحذر من ظلمها، فإذا ﴿نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي عقدتم عليهن ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ من قبل أن تدخلوا عليهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ عندئذ لا عدة على المطلقة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن عطاءً يجبر خواطرهن ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ بالمعروف، وبالحسنى.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠)﴾

قال محمد الغزالي: [المعروف أن للمسلم أن يتزوج بأربع لا يزيد. وقد أسلم رجل ولديه عشر زوجات، فأمره النبيّ بإمساك أربع وتسريح الباقيات.

قد تقول فلماذا لم يطبق ذلك على نفسه؟ والجواب أنه بعدما اخترنه على أهلهن وآثرن البقاء معه على شظف العيش ما يسوغ ترك إحداهن! ثم ماذا تفعل من يسرِّحها؟ إن زواجها بغيره مستحيل لحرمة أمهات المؤمنين على سائر الأمة! فالحل أن يبقين، ولو كان من بينهن العجائز!

ثم قيل للرسول عقب هذا الوضع ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢)﴾ [الأحزاب].

والتعدد نظام قد يقبل مع شرف الأخلاق وتباين الطبائع والحاجة إلى الذرية، وقد عُرف فى سيَر الأنبياء. وأشعر بريبة فيما ذكرته التوراة من أنه كان لسليمان ألف امرأة، وأحسب ذلك من المجازفات.. ! وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض فى هذه القضية! فإن التعدد فيها كلأ مباح، وربما استطاع الصعلوك أن ينال أكثر مما نال سليمان سفاحًا لا نكاحًا].

وقد نقل الشوكانى عدة أقوال عن سبب استخدام الآية الجمع فى العمات والخالات، والمفرد فى العم والخال، ربما أرجحها ما ذكره القرطبى أن العم والخال فى الإطلاق اسم جنس وليس كذلك العمة والخالة، ويؤيد ذلك قول عائشة وحفصة وهن يتباهين على صفية: نحن زوجاته وبنات عمه.

قضى الله ألا تتزوج أمهات المؤمنين أحدًا بعد رسول الله (ﷺ)، كما تبين الآية ٥٣ ـ لحكمة عنده، قد ندركها، أو ندرك بعضًا منها، فماذا تفعل من يطلقها؟ مع العلم بأن سورة النساء نزلت بعد سورة الأحزاب، وسورة النساء هى التى جاء فيها الحكم الشرعى بألا يتزوج أحد من المسلمين أكثر من أربعة. وبعد نزول آية تخيير نساء النبى (ﷺ) بين متع الحياة الدنيا وبين الاستمرار معه فى حياته الخشنة وتحت أعباء الرسالة، وبعد اختيارهن الله ورسوله؛ جاءت الآيات التالية، وآخرها الآية ٥٢ التى تمنع النبى (ﷺ) أن يتزوج عليهن أو يبدلهن. فلنتابع الآيات من بداياتها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فهذا تقرير وتأكيد لاحتفاظ النبى (ﷺ) بزوجاته ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ المقصود قراباتك من جهة الأب، وقراباتك من جهة الأم، وهن نساء قريش ونساء بنى زهرة ومن تنتسب لهن ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وخص الله نبيه بجواز الزواج ممن تهب نفسها له بدون مهر، والأرجح من روايات التراث أنه لم يتزوج من أىّ منهن وأنه زَوَّج من عرضت ذلك بأحد الصحابة ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قد بينا ما فرضنا على الرجال فى زوجاتهم وفيما ملكت أيمانهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ فلا حرج فيما شرعه الله، وإنما الحرج فى مخالفة شرع الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

***

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

قال الشوكانى : [عن أبى رزين قال : هَمَّ رسول الله (ﷺ) أن يطلق من نسائه ، فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخل سبيلنا وأنت فى حل فيما بيننا وبينك ، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت ، فأنزل الله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾] والمعنى تقسم بين من تشاء وتترك من تشاء إلى حين وحتى تقر أعينهن بالبقاء زوجات لخاتم النبيين ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ يعلم الله ما يعتمل فى قلوبكم ، ويعلم ما يُصلحكم ، ويحلم عن كثير مما تظنونه وتقولونه وتفعلونه فيما يخص شرع الله ، لا يعجل العقوبة لكم حتى تظهر حجته ، ثم يؤخرها عسى أن تتوبوا ، ثم نزلت الآية التى تحرم على النبى (ﷺ) اتخاذ أية زوجات أخر ، أو بدلاً من زوجاته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾

كانت بيوت النبى (ﷺ) هى حجرات النوم ، ليس أكثر من ذلك ، ربما كان لبعضها مداخل صغيرة قبل حجرات النوم[1] ، لا تكفى للحفاظ على حرمة البيت أمام الكم الهائل من الزوار ، وكان زواره المؤمنون من كل مكان ، ومن كل شكل ولون ، وكان الكثير منهم يود أن يلبث مع نبيه أطول مدة ممكنة ، حتى أن الفاروق (رضي الله عنه) قال له : يارسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ رواه البخارى ، فنزلت الآية .

(١) فى مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، بالمدينة ، مجسمات لبيوت النبى(ﷺ) ، تظهر البيت عبارة عن حجرة مساحتها حوالى ٢٠ متر٢ ، ومدخل بسيط مساحته أقل من نصف الحجرة ، وليس كامل الخصوصية .

والحجاب المذكور فى الآية ـ بسيط ومتواضع ـ شبيه بما نصنعه الآن فى بيوتنا من تقسيمها لغرف النوم، لا يدخلها الضيوف، وغرفة للجلوس، وأخرى للطعام حتى لا يقتحم الضيوف غرف النوم. وقد كان النبى (ﷺ) يستحى أن يطلب منهم الانصراف بعد الطعام، وكما يبين صدر الآية، كان بعضهم يدخل بدون إذن، والبعض الآخر يدخل وينتظر طويلاً حتى يحين وقت الطعام، فنزلت الآية تمنع الدخول بدون إذن، وتمنع من المكوث الطويل فى البيت منتظرين طعامًا أو للتحدث طويلاً مع النبى (ﷺ)، وقالت الآية إن النبى (ﷺ) يستحيى من تنبيه المسلمين لذلك، ولكن الله لا يستحيى من بيان الحق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وتبين الآية أنه لم يكن هناك دائمًا من تعملن فى خدمة أمهات المؤمنين، وتنهى المؤمنين عن الانفراد بأمهات المؤمنين فى حجراتهن، وإذا طلب أحد من المؤمنين شيئًا منهن فليكن ذلك من خارج حجراتهن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ باستغلال كرمه وحيائه ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ هل ذلك تكريم لخاتم الأنبياء؟ وحفظ لسيرته وأقواله من أن يتلاعب بها أحد بعد وفاته؟ أم حفاظ على أمهات المؤمنين من أن ينالهن سوء أواستغلال من بعده؟ أم حفاظ على وضعهن كأمهات للمؤمنين تتأسى بهن المؤمنات ويجلهن ويقدرهن المؤمنون؟ أم بعض ذلك؟ أم كله؟ أم غيره؟ الله أعلم.

وليس ذلك بفريد، فلم نسمع عن زواج زوجات إبراهيم أو يعقوب أو موسى أو داود (عليهم الصلاة والسلام) بعد وفاتهم ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثل المؤمنون وأمهات المؤمنين لذلك ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

***

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾

بعد أن نزلت آية الحجاب التى تمنع الضيوف من دخول حجرات النبى (ﷺ) وبها نساؤه، نزلت هذه الآية تستثنى البعض ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أى على نساء النبى وكلّ نساء المسلمين أن يستقبلن فى بيوتهن دون حجاب ساتر الإماء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات قريباتهن ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قيل من الإماء فقط، وقيل من الإماء والعبيد الذين يعملون لديهن ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾.

***

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) ﴾

صلاة الله على نبيه رحمة، وصلاة الملائكة طلب لرحمة الله وغفرانه، وصلاة المؤمنين وسلامهم حسنات لهم تقربهم من الله ورسوله، وجاء عند مسلم «من صلّى علىّ صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا» ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ المقصود يؤذون رسول الله، فكأنهم يحاولون إيذاء من أرسله، وقال الماتريدى: [إضافة الأذى إلى الله على إرادة رسوله خاصة؛ لأن الله لا يجوز أن يقال إنه يتأذى بشىء أو يؤذيه شىء؛ لأن الأذى ضرر يلحق، والله يتعالى عن أن يلحقه ضرر أو نفع، بل هو القاهر الغالب القادر الغنى بذاته، ويكون المراد بإضافة الأذى إليه رسوله خاصة، على ما ذكرنا فى قوله ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ [البقرة: ٩] أى يخادعون رسوله، وكقوله ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ وأمثال ذلك كثير، والله أعلم]، ونضيف أيضًا مثل قوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، أولئك الذين يؤذون رسول الله، أبعدهم الله من رحمته فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب مهين ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ يؤذونهم بالقول أو الفعل بغير جناية ارتكبوها ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا ﴾ اكتسبوا ﴿ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ كذبًا كبيرًا وذنبًا ظاهر القبح.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾

قال محمد الغزالى: [كان فى المدينة فتيان سوء يتسكعون فى الطرقات ابتغاء الريبة، فإذا وجدوا امرأة مهملة فى حجابها أومبتذلة فى ثيابها، طمعوا فيها. فأمرت (الآية) المؤمنات بالاحتشام الكامل، وألا يتركن لهبوب الريح أو سرعة السير فرصة لبعد الملابس عن الجسم، وبذلك التصون يصدون الرغبات الجامحة، ويحمين أنفسهن من السفلة. ثم قيل لهؤلاء الفاحشين ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ﴾] والحق أن المدنية الحديثة يسرت الفتن للقريب والبعيد،

والراغب والعازف. والمحور الذى تدور عليه حياكة الملابس ـ التى تظهر المفاتن وتكشف أكثر مما تستر ـ هو الإغراء الحرام[1]، ولا مكان هناك لتقوى القلوب.

* * *

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عن نفاقهم ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قيل حب المعاصى، وقيل ضعف فى الإيمان وعدم الصبر عليه، وقيل المقصود المنافقون الذين لا تطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ ﴾ مروجو الإشاعات ضد الإسلام والمسلمين، والإرجاف هو إشاعة الكذب والباطل، وأصله التحريك الشديد، وُصفت به الأخبار الكاذبة لأنها متزلزلة غير ثابتة، أو لما تحدثه فى النفوس ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنسلطنك عليهم ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لن يمكثوا بجوارك فى المدينة، فسوف يجليهم رب العالمين عنها، ولن يبقوا فيها إلا زمنًا قليلاً ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ تتبعهم لعنة الله أينما وُجدوا ﴿ أُخِذُوا ﴾ أسروا ﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ هذه هى سنة الله فى الأمم السابقة التى مكرت بأنبيائها ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

* * *

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾

يسألك الناس يا محمد متى تقوم الساعة؟ فقل لهم ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ وساعة كل إنسان يوم وفاته، فالأجدر باهتمام الناس هو العمل استعدادًا للساعة وليس السؤال عنها، ولذلك أجاب الرسول (ﷺ) ذات مرة من سأله عن وقت قيام الساعة سائلاً: «ماذا أعددت لها؟» ويبدو من السياق أن السائلين كانوا مكذبين أو متحدين مستهزئين، لذلك جاءت الإجابة أن للكافرين فيها نارًا

(١) كثير من أشهر مصممى الأزياء فى العالم من الشواذ!.

متقدة، خالدين فيها، لا يجدون من يواليهم أو ينصرهم، ويومها تتقلب وجوههم فى النار بحثًا عن مخرج، أو لتخفيف العذاب، أجارنا الله من ذلك، و﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ بعد أن عرفوا الحق ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾ تحجج أصحاب النار بأنهم اتبعوا سادتهم وكبراءهم، سواء كانوا حكامًا أو وجهاء أو علماء، أو حتى رجال دين ضالين مضلين، فأضلوهم عن سبيل الله ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ جزاء ضلالهم وجزاء إضلالنا ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ واطردهم من رحمتك طردًا كبيرًا.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

روت كثير من التفاسير قصة اتهام بنى إسرائيل لموسى (ﷺ) بعيب خلقى، وقال الماتريدى عن ذلك: [هذا التأويل بعيد]، وقال المراغى: [لم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى، ومن الخير ألا نعينه حتى لا يكون ذلك رجمًا بالغيب دون دليل] ولن يعيب أحدًا أن يخلقه الله بعيب خلقى، ولن يمنع العيب الخلقى موسى (ﷺ)، أو أحدًا من المؤمنين أن يكون وجيهًا عند الله خالقه، والعبرة هنا هو ما تأمر به الآية المؤمنين: لا تأذوا رسول الله (ﷺ) كما آذى بنو إسرائيل موسى (ﷺ)، وروى الشيخان عن ابن مسعود قال: قسم رسول الله ذات يوم قسمًا، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله، فاحمر وجه رسول الله، ثم قال: «رحمة الله على موسى، فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»، وللنهى عن ذلك تأمر الآية المؤمنين ﴿ قُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ حتى تنصلح أعمالكم، وحتى يغفر الله ذنوبكم ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

***

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

عرض الله أمانة الخلافة على الأرض لإقامة الحق، على السموات والأرض والجبال فرفضن حملها شفقةً على أنفسهم وخوفًا من تبعاتها. وتعددت أقوال المفسرين: هل هذا العرض حقيقة؟ أم ضرب مثل ـ كما نقل القرطبى عن القفال وغيره ـ أو مجاز عن ثقلَ المهمة التى لا تستطيع الكائنات الهائلة الضخامة: السموات، والأرض، والجبال أن تحملَها؟ ونقل ذلك مخلوف، وليس هناك ما يمنع أن يكون العرض حقيقيّا، والله أعلم. وقال المراغى: [إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهى والتبصر فى شئون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف وصغر جرمه مستعداً لتلقيها والقيام بأعبائها]، وقال محمد الغزالى: [خُتمت سورة الأحزاب بخلاصة وجيزة عن عمل البشر على ظهر الأرض.. إنهم تميزوا على غيرهم بحرية الإرادة، وبالتكليف الذى يميز الأخيار والأشرار. إنهم ليسوا دواب محكومة بغرائزها الدنيا، ولا أرواحًا محكومة بخصائصها العليا. إنهم جنس خاص يستطيع التسامى والإسفاف، يستطيع أن يتجه يمينًا إلى الجنة أو يسارًا إلى النار، وأمانة التكليف حملها الإنسان، وهو يستطيع الوفاء بحقوق الله وحقوق الناس، كما يستطيع خيانتها والعبث بها] ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ حمل الإنسان تلك الأمانة الثقيلة، فهو ظلوم لنفسه، جهول عن ثقل التبعة. هل عرض الله الأمانة على الإنسان كما عرضها على السموات والأرض والجبال؟ يُمكن فهم ذلك من السياق، ولكن لا يمكن الجزم به ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ تلك هى تبعة حمل الأمانة، الجزاء على العمل فى الآخرة، إما عذاب للكافر، وإما توبة وغفران ورحمة للمؤمن.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

سورة سبأ رابعة السور المبدوءة بحمد الله[1] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ ﴾ يوم يضع الموازين الحق، ويجازى الناس بالحق ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ واهب الحكمة ومانعها ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بكل الأمور، ما كان وما هو كائن وما سيكون، وكيف لا وهو خالق كل الأمور ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يعلم ما يدخل فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها، فهو خالق كل شىء وقائم عليه ـ ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤] ـ ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِىَ

(*) إلا الآية السادسة فمدنية.

(١) بدأت بالحمد سور: الفاتحة، الأنعام، الكهف، وستأتى بعد ذلك سورة فاطر.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

الذين كفروا يريدون أن يتمتعوا بحياتهم الدنيا، وفق أهوائهم وشروطهم وأفكارهم ونظرياتهم، ويرفضوا أن يحاسبوا على أعمالهم بموازين أخرى غير موازينهم، ولذلك يرفضون حقيقة البعث والحساب، فتقول الآية ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أقسم بالله، ستأتيكم، واعلموا أن ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلا أَصْغَرُ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فأقوالكم وأعمالكم، صغرت أو كبرت، قصرت أم طالت، مسجلة لديه في كتاب واضح، لا يغيب عنه وزن الذرة ولا أصغر ولا أكبر ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بالمغفرة والرزق الكريم في الدنيا والآخرة، أما ﴿ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ الذين جحدوها وتحدوها متصورين أن يغلبونا ويعجزونا ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ والرجز هو أشد العذاب، أما أهل العلم فهم يدركون أن القرآن حق من عند الله، يهدي إلى سبيل ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ واهب العزة ومانعها، المحمود.

❊ ❊ ❊

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

ودائما أبدًا نرى كفار الأمس وكفار اليوم يرفضون يوم البعث والحساب؛ وقال بعضهم مستنكرًا ومستهزئًا ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾ وهو محمد (ﷺ) ﴿ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ يخبركم بالعجب العجاب ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ تمزقتم كلّ تمزيق وصرتم ترابًا وعظامًا ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ تبعثون أحياءً مرة أخرى، هل هذا الرجل ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ فيرد عليهم خالقهم ومرسل الرسل إليهم ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ ثم تحذرهم الآية من أن تنقلب عليهم السماء والأرض المحيطة بهم، كما انقلبت على الذين قبلهم، أو تبتلعهم الأرض، أو تأتيهم الريح المهلكة بالصواعق أو بالحجارة، كما حدث لأقوام قبلهم، وإن في ذلك لعبرة لكل عبد منيب.

❊ ❊ ❊

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾

آتى الله داود (عليه السلام) فضلاً: علمًا وحكمة، وذرية صالحة: سليمان الحكيم (عليه السلام)، وعلى رأس ذلك الفضل آتاه الله الكتاب والنبوة ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ سبحي يا جبال معه أنت والطير ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ سخرنا له الحديد، وجعلناه لينًا في يده يُشكلِّه كما يشاء ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ دروعًا واسعة تحمي من بأس الأعداء ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أحكم صنعتك في الدروع وأتقنها، والسرد هو نسج الدروع، وقيل هو اسم جامع للدروع وسائر الحلق أو الحلقات ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ يا بني البشر، إن الله عليم بصير.

* * *

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾

سخر الله لسليمان (عليه السلام) الريح، تذهب في شهر وتعود في شهر، أوتجرى في النهار ما يقطعه الناس في شهر، وتجرى من الزوال إلى الغروب فيما يقطعه الناس في شهر ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ ألهمناه صهر النحاس، وسخرنا له الجن تعمل بين يديه ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ ومن يعصى ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ يصنعون لسليمان ﴿ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ﴾ مبان للعبادة ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ التماثيل جمع تمثال، وهو كل شيء مثلته بشيء، أي صورته بما يشبهه، فتعني الكلمة الصور، وتعني التماثيل بمعناها اليوم، والله أعلم أيًا من ذلك كانت الجن تعمله، ويظهر من سياق الآية أن ذلك كان مباحًا ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ أحواض كبيرة ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ وقدور كبيرة ثابتات ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ ما أجل وأهم وأشمل هذه الكلمات الثلاثة، وهي تخاطب آل داود وكل المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: اعملوا لتشكروا الله، واعملوا فعملكم الصالح هو في ذاته شكر لله ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ إن الله يحب العبد الشكور ويزيده من فضله، ولكن قليل من يفعل ذلك

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ لما حكم الله على سليمان (ﷺ) بالموت، مات وهو متكئ على ﴿ مِنسَأَتَهُ ﴾ عصاه، ولم تعِ الجن أنه مات، فظلت تعمل بجد ونشاط خوفًا منه، وأرسل الله حشرة، قيل هى الأرضة، تأكل العصا فسقط سليمان (ﷺ) على الأرض ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ﴾ كما يزعمون أو يظن الجاهلون، ما ظلوا ﴿ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾.

* * *

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾

ثم تذكر الآيات قصة أهل سبأ، كانت لهم جنتان من آيات صنع الله، على جانبى مساكنهم، وقال تعالى لهم ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ ولكنهم رفضوا وأعرضوا ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ السيل معروف، وقيل: العرم اسم للوادى الذى أتى منه السيل، وقيل: هو اسم سد هدمه السيل قبل أن يجتاحهم، وفى الحالتين، اجتاحهم السيل وأهلك الجنتين ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ هلكت الجنتان وحل محلهما ﴿ خَمْطٍ ﴾ ثمر مر الطعم، و﴿ أَثْلٍ ﴾ الطرفاء المعروف فى مصر باسم الأثل ـ وهو شجر طويل مستقيم يُعَمّر، جيد الخشب، دقيق الورق ـ وقليل من النبق ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾.

* * *

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُو مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾

وجعل الله بينهم وبين القرى التى بارك فيها، مثل مكة والمدينة وبيت المقدس، قرى يستريحون فيها ويأمنون بها، وقدر مسافاتها لتتناسب مع وسيلة سفرهم، وبدلاً من شكر الله

على ذلك طلبوا منه أن يباعد بين أسفارهم، وتبرموا بنعمه، واتبعوا إبليس فيما دعاهم إليه، واستجابوا لظنه الشرير بهم، إلا قليل منهم، ففرق الله شملهم، وجعل حضارتهم مجرد حديث يروى. وتؤكد الآية أنه لم يكن لإبليس سلطان عليهم، ولكن ابتلاهم الله ليباين المؤمن عن غيره، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

***

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

قل يا محمد للمشركين ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الذين اتخذتموهم شركاء لله فلن يستجيبوا لكم، فهم لا يملكون جلبًا لنفع ولا دفعًا لشر، وبذلك لا يملكون ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ وليس لهم أيّ شركة مع الله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ وليس له منهم معين على الخلق أو التدبير ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ممن يقولون لا إله إلا الله، من الأنبياء والصالحين ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ حتى إذا أزيل عن قلوب الناس الفزع والخوف يوم الحساب ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا قال ربكم في أمر الإذن بالشفاعة ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ قيل هو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى من الموحدين، وقيل لا إله إلا الله، والله أعلم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

***

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾

قل لهم يا محمد مذكرًا ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ بتسخير الشمس والقمر والنجوم، وإنزال الأمطار ﴿وَالأَرْضِ﴾ من البحار والأنهار والعيون، والزروع والمعادن والماشية، وغيرها ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لا إله غيره ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ ونحن كمسلمين وأنتم كمشركين، كلانا إما على هدى أو ضلال ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا

﴿ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قال الزمخشري: [هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول؛ حيث أسند الإجرام لأنفسهم والعمل للمخاطبين]، وقال محمد الغزالي: [وهنا نرى لونًا من أدب الجدال، وبعد إرخاء العنان للخصم على هذا النحو، زاد المشركين تخجيلاً عندما قال ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾] فبعد أن أصر المشركون على ضلالهم ورفضوا كل آيات الله البينات، أمر الله رسوله أن يقول ما يخزي جحودهم وعنادهم: لستم مسئولين عن إجرامنا، ولسنا مسئولين عن أعمالكم، وأن يقول ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ ثم يحكم بيننا الله ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ وهو الحكم العليم ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ﴾ هذه الآلهة والأوثان الذين ﴿ أَلْحَقْتُم ﴾ جعلتموهم شركاء لله ﴿ كَلاَّ ﴾ نهيًا لهم عن معتقداتهم وأقوالهم الزائفة ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ واهب العزة ومانعها الغالب على أمره ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ واهب الحكمة ومانعها.

* * *

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ(٣٠) ﴾

لم يبلغ رسول قبل محمد (ﷺ) رسالة الله إلا إلى قومه أو قوم هجرته، وربما لمن كان معهم، أما محمد (ﷺ) فبينت الآية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وآية الأنبياء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [١٠٧] أنه مكلف برسالة عالمية، ولذلك أرسل رسائله لكل الأقوام المحيطة بالجزيرة العربية، من فارس إلى الشام إلى مصر إلى الحبشة، ولذلك نزل في القرآن، على سبيل المثال، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجاء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وجاء في الحديث «كلكم بنو آدم وآدم، خلق من تراب» رواه البزار، وجاء «لا فضل لعربي على عجمي إلا

بالتقوى» رواه أحمد[1]، فليس فى الإسلام شعب الله المختار والشعوب المستُبعدة، وليس هناك أولاد لله من خلقه، والآخرون ليسوا أولاد الله، وليس فيه: «أنت ابنى، أنا اليوم ولدتك. أطلب منى فأعطيك الأمم ميراثًا وأقاصى الأرض ملكًا لك، فتكسرهم بقضيب من حديد وتحطمهم كآنية الفخار» ـ المزمور الثانى ـ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ لانشغالهم بالدنيا وطمسهم على قلوبهم ومداركهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهذا سؤال تحدٍّ واستهزاء من الكافرين فى كل زمان ومكان، قل لهم يا محمد ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ وكل آت قريب.

***

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

ويستمر الكفار فى تكبرهم وجحودهم، ويقولون لن نصدق هذا القرآن ﴿وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة كالتوراة والزبور والإنجيل، ثم تنتقل الآيات لحال هؤلاء الظالمين فى الآخرة، فتقول لمحمد (ﷺ) وللمستمعين له والقارئين القرآن حتى يوم الدين ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ ترى الظالمين بكفرهم محبوسين يوم القيامة للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يتبادلون التهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم سادتهم وقادتهم إلى جهنم والعياذ بالله ﴿لَوْلا أَنتُمْ﴾ بتسلطكم علينا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولنجونا من هذا الموقف المهين ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ بل كنتم مجرمين مؤثرين الضلال على الهدى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ

(١) إذا قرأت الكتاب المقدس، لوجدت العهد القديم لا يهتم إلا ببنى إسرائيل، ويتكرر فيه عشرات المرات، وطوال مادة العهد القديم من أولها لآخرها، أنهم عندما يستقيمون، يتسلطون على الأمم التى حولهم، وعندما ينحرفون يُسلط الله عليهم الأمم التى حولهم، وجاء فى العهد الجديد قصة المرأة الكنعانية وفيها قال المسيح (ﷺ): ما أُرسلت إلا إلى الخراف الضالة، إلى بيت إسرائيل ـ متى ١٥ : ٢٤.

﴿ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ بل هى أوامركم المستمرة لنكفر بالله ﴿ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ نظراء وشركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ ندموا فى داخلهم وبين بعضهم البعض لما شاهدوا عذاب النار، وجعلنا القيود فى أعناق الكافرين ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾

كثيرًا ما افتتن الناس بما أعطاهم الله من أموال وأولاد وأحوال طيبة، ولذلك يقول المترفون لرسلهم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وبدلاً من حمد الله وشكره على نعمه ليزيدهم من فضله، يقولون فى تحدٍّ وغرور ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فنحن المصطفون فى الدنيا، ولو كان هناك آخرة فنحن هناك أيضًا المصطفون. قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ليمتحنه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ ويضيقه على من يشاء ليمتحنه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وما كانت هبة الله لكم من المال والأولاد تقربكم من الله ﴿ زُلْفَىٰ ﴾ قربى، وإنما السبيل للتقرب من الله هو الإيمان وعمل الصالحات ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ﴾ غرف الجنة ومنازلها الرفيعة ﴿ آمِنُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾

والذين يسعون فى آياتنا ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ يريدون أن يطفئوا نور الله ﴿ أُوْلَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ قل لهم يا محمد إن الله هو الرزاق، يوسع رزقه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء،

وما أنفقتم من شيء فى سبيل الله ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ فهو يخلفه عليكم ويعوضكم عنه بأضعاف مضاعفة، وجاء فى الحديث «ما نقص مال من صدقة» رواه مسلم، والله خير الرازقين ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ سيسأل الله الملائكة ـ وهو أعلم ـ أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟ فردت الملائكة ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ننزهك عن الشريك ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ ما نحن إلا عبيد لك نواليك وحدك من دون الخلق، وإنما هؤلاء الذين أشركوا بك كانوا ﴿ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعبدون الشياطين باتباعهم أهواءهم وشهواتهم، ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يوم الحساب، لا يملك أحد نفعًا ولا ضرًا، ويقول الله للمكذبين ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾

وعندما يدعو محمد (ﷺ) العرب للإسلام، قالوا ماهو إلا رجل يريد أن يحول بينكم وبين ما كان يعبد آباؤكم ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ ما هذا إلا كذب مختلق، ثم قالوا عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وبرغم أنهم يعلمون أن الله لم ينزل لهم كتبًا سماوية يدرسونها ولا أرسل إليهم أنبياء من قبل، فعلى أىّ أساس يستندون ويرجعون لما عبد آباؤهم؟ ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم السابقة أنبياءهم ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ومشركو العرب لم يصلوا إلى عشر ما بلغته الأمم السابقة، فأهلكناهم عندما كذبوا رسلى، استنكارًا لتكذيبهم. قل لهم يا محمد إنى أعظكم بأن تتفكروا فرادى، أو اثنين اثنين، فهذا أدعى للتفكير الهادئ الرصين وأبعد عن الشوشرة، وتعودوا لرشدكم، فما عرفتم فى محمد جنونًا، وعرفتم أنه الصادق الأمين، وما هو إلا ﴿ نَذِيرٌ لَّكُم ﴾ أرسله الله ليحذركم من ﴿ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يوم الحساب.

* * *

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾

قل لهم يا محمد إذا كنتم تخافون أن أطلب منكم أجرًا على ما أدعوكم إليه ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ خذوا أنتم الأجر، وفى الحقيقة سوف تنالون أجرًا كريمًا إن اتبعتمونى واهتديتم لله الواحد الأحد ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ أنتظر الثواب والرضا من الله ـ تعالى ـ فقط ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ قل يا محمد إن ربى يقذف بالحق فى القلوب غير المتكبرة ولا الجاحدة فتحيا به بعد موتها، وهو ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ لا يخفى عليه شىء فى جميع الأكوان ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قل يا محمد مبشرًا ومطمئنًا المؤمنين: لقد جاء الحق من ربكم فأصلحوا به أموركم، وأقيموا به الدنيا ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فمهما انتفخ الباطل وانتشى فهو إلى زوال، قل لهم يا محمد إن كان ما أدعو إليه ضلالاً فسيعود وزره علىّ، وإن كان ما أدعوكم إليه هو الهدى فإن ذلك ليس من عندى، إن هو إلا وحى من الله ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يجيب دعوة الداعى ولو بعد حين.

***

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾

ويوم القيامة ﴿ إِذْ فَزِعُوا ﴾ من هول جهنم ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ فلا نجاة لهم ولا مهرب من العذاب ﴿ وَأُخِذُوا ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ كناية عن سهولة أخذهم، وعندئذ يقولون ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ بما أرسل الله ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ ليس هناك سبيل لهم للمحاورة والمداورة ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ كناية عن استحالة تحقيقهم ما يريدون. والله يعلم أنهم ﴿ قَدْ كَفَرُوا ﴾ بما أنزل وأرسل من قبل ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وقد كانوا فى حياتهم الدنيا يخوضون ويتجرأون بقول ما ليس لهم به علم ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ومُنعوا من بلوغ ما يريدون، من الإفلات من العذاب والتنعم بالجنة ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ كما مُنع من على شاكلتهم من الكفار والمشركين والمنافقين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ فقد طمسوا قلوبهم ومداركهم بالشك من البعث والحساب، لكى يعبدوا أهواءهم ومتعهم الدنيوية.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾

سورة فاطر هى الخامسة وآخر السور المبدوءات بالحمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على نعمه ﴿ فَاطِرِ ﴾ مبدع، موجد من غير مثال سابق ﴿ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بكلّ ما فيهما من مخلوقات ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾ بوحيه، وبغير ذلك مما يكلفهم به ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ تلك الأجنحة، مثلها مثل شأن الملائكة كله، من أمور الغيب، لا يعلمها أحد بإعمال النظر والتفكير، ولكن فقط بالنصوص من القرآن والأحاديث الصحيحة، والله أعلم بمقصوده ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

***

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

تتكرر الآيات التى تؤكد للبشر أن أرزاقهم بيد الله وحده ـ وآجالهم بيد الله وحده، وعزتهم بيد الله وحده، وهدايتهم بيد الله وحده ـ فكيف لا يعبدونه وحده؟ وكيف

لا يرتفعون لمستوى المسئولية، ولا يمتلئون ويتيهون عزة وكرامة أن جعلهم الله خلفاء على الأرض؟ وأخبرهم أنه سخر لهم ما فى السماوات والأرض وكرمهم وفضلهم على كثير من العالمين؟ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكيف بعد كلّ ذلك تنقادون للإفك الذى يضللكم للكفر ولاتخاذ شركاء كذبًا، زورًا؟

***

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)﴾

وإن كذبوك يا محمد فقد كذب أقوام سابقون رسلهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وطمئن المؤمنين بأن الحساب الختامى بيد الله، بموازين الله، وتبدأ عند ذلك الحياة الحقيقية، خلود فى النعيم ورضوان من الله للمؤمنين الذين عملوا الصالحات، وخلود فى النار للمكذبين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يا أيها الناس، يا كل الناس، لا تصرفكم متع الدنيا الزائفة الزائلة عن عملكم على الأرض، والجنات التى أعدها ربكم للصالحين، واتقوا عقاب الله ولا تتمنوا الأمانى بلا إيمان وبلا عمل ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ فهل يطيع أحد عدوه؟ ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بعدم اتباعه بادئ ذى بدء، ثم الحرص والحذر منه ومن مكره فهو ﴿يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ المستجيبين له ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ لتكون نهايتهم الخلود فى جهنم، واعلموا أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ الخبر محذوف لدلالة السياق عليه، وليقدح القارئ ذهنه فى المسألة، فإن الله يضلّ من اختار طريق الضلال، ويهدى من اختار طريق الهدى والنور، وذلك قضاء الله وتلك مشيئته ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فلا يشتد حزنك يامحمد لكفر قومك حتى تهلك نفسك غمّا وحزنًا، والله ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

***

﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾

الله هو الرزاق، بالمطر وبغيره، وينشر الناس بعد موتهم للحساب كما يحيى الأرض الميتة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ما يحق لمؤمن صادق الإيمان أن يذل نفسه لأحد بعد قراءة هذه الآية ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ يدعو ذلك المؤمنين لقول الكلام الطيب والقيام بالعمل الصالح، وأن يتباينوا عن ﴿ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يدبرون المكائد والشرور، فلهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يفسد ويذهب هباء، ثم تذكر الآية الناس ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فاحمدوا الله على ما صرتم إليه، وتدبروا قدرته ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكرانًا وإناثًا، وكل أمر لديه فى اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

***

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ البحر المالح والبحر أو النهر العذب ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ طيب حُلو شديد العذوبة ﴿ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴾ مستساغ الشرب ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وهذا شديد الملوحة ومع ذلك فإنكم تأكلون منهما ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ الأسماك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ من أمثال لؤلؤ ومرجان، وغير ذلك ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ تمخر وتشق الماء بمقدمتها ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ من صيد الأسماك واستخراج الأحجار الكريمة ونقل الركاب والبضائع، وغير ذلك ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ربّ كل هذه النعم الذى ﴿ يُولِجُ ﴾ يدخل

﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ على مدى الدهر لتنعموا بنهار مبصر مضيء للعمل، وتتمتعوا بليل هادئ لتناموا، ويزداد طول أحدهما على حساب الآخر، ثم يعود للتناقص، ثم يعيد دورته ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ ﴾ التى تمنح الدنيا طاقة حرارية وضوئية وغير ذلك من منافعها ﴿ وَالْقَمَرَ ﴾ لتهتدوا به فى عدّ الأيام والشهور والسير ليلاً ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ هو يوم الحساب ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ وحده ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ من شركاء، سواء كانوا ملائكة أو أصنامًا أو بشرًا لا يملكون ﴿ قِطْمِيرٍ ﴾ وهو القشرة الرقيقة حول النواة، فالملك الحقيقى لله، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى لا حول ولا قوة لهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ ويتبرءون منكم ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أنتم المحتاجون إلى ربكم ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عنكم ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المحمود ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يهلككم جميعًا، ثم ﴿ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ وليس صعبًا عليه ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ولا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى، فبالأحرى لا تحمل نفس صالحة وزر نفس أخرى ـ ولا يتعارض ذلك مع ما جاء فى سورة العنكبوت ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [١٣] فهذا فى الضالين الذين وزرهم أنهم يُضلون الآخرين، ولن يخفف ذلك من أثقال الذين أضلوهم ـ ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ و إن تطلب نفس مثقلة بالذنوب نفسًا أخرى تتحمل عنها بعض الذنوب ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فلن يُستجاب لها ولو من أقرب الأقرباء، واعلم يا محمد أن إنذارك يجدى مع الذين يخشون ربهم بالغيب، والذين أقاموا الصلاة، ومن يتطهر من الاعتقاد والقول والعمل السئ، ويزكى نفسه بالعمل الصالح، وينفق من أمواله فى سبيل الله، ومن يتزكى بعمله وبماله فإنما يعود تزكيه عليه بالفائدة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

* * *

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾

لا يستوى عند الله أعمى القلب، وهو الكافر والمشرك والمنافق، مع المؤمن صاحب البصيرة، ولا ظلمات الضلال مع نور الهدى، ولاظل الجنة مع حرّ جهنم، وما يستوى أحياء القلوب مع أمواتها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ من غير المتكبرين ولا الجاحدين ﴿ وَمَا أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ شبه الكفار بالأموات فى قبورهم؛ لأنهم أماتوا قلوبهم وعطلوا مداركهم سعيًا وراء أهوائهم، فما عليك إلا الإنذار، ولقد أرسلناك لتبشر الناس بالحق وتنذرهم عقاب الله إذا عصوه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم السابقة ﴿ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ إلا وجاءها نذير، فإن كذبوك فقد كذَّب أمثالهم الرسل من قبلك برغم أن رسلهم جاءوهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالآيات الواضحة ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ وبالكتب السماوية مثل صحف إبراهيم وزبور داود ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ وبالتوراة والإنجيل، وذلك الأسلوب من قبيل عطف الخاص على العام، فأخذت الذين كفروا أخذ عزيز مقتدر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر كيف كان إنكارى كفرهم وانتقامى منهم.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ويا كل من يبلغه القرآن ﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ لتخرج الأرض ثمرها المختلف فى الألوان ـ وما إلى الألوان من أشكال وأحجام وطعوم وروائح ـ ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ طرق مختلفة الألوان، شديدة السواد وهى الغرابيب السود، والمراد تنوع هيئات الجبال بالطرق التى فيها وبألوانها، فتلك الجبال الهائلة يشكلها الله كيفما شاء،

كـذلك تخـتلف ألوان الناس والدواب من الأبيض إلى الأحـمـر إلى الأصـفـر إلى الأسـود بدرجات كلّ لون، وبنسب مـختلفـة لاختلاط تلك الألوان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إن أحق وأولى الناس بخشية الله هم العلماء، ولكن من هم العلماء المقصودون؟ قال قدامى المفسرين: أعلمهم بالله، وقال محمد الغزالى: [وسياق الآية ظاهر فى أن المقصود بالعلماء هنا علماء النبات والحيوان وعلماء طبقات الأرض، وعلماء الفيزياء والكيمياء، فضلاً عن علماء الطب والهندسة والفلك. لقد تتبعنا أقوال هؤلاء وسمعنا حديثهم عن الله تبارك وتعالى، فإذا هم يذكرون عظيمًا أهلاً للتحميد والتمجيد، والإفراد بالعبودية.

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

وعلى هذا المحور تدور معانى القرآن. فالإيمان وليد عقل ذكىّ باحث، والدين ليس إلا عقلاً مؤمنًا وقلبًا استقرت إلى الله وجهته!] وما أحق الجمع بين التأويلين، وجمع معارف علمائهما، كالجمع بين معارف القرآن كتاب الله المسموع، ومعارف الكون كتاب الله المُعاش ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ إن الله واهب العزة ومانعها، وهو غفور لكل من تاب وأناب. ثم تطمئن الآيتان الأخيرتان المؤمنين وتبشرهم، من يتلو كتاب الله، ويعمل به، ويقيم الصلاة، ويعمل بما تأمره بها، وينفق أمواله فى سبيل الله سرّا وعلانية، فالإنفاق فى سبيل الله هو تصديق الإيمان، يعطيهم الله جزاءهم ويزيدهم من فضله، فهو ﴿غَفُورٌ﴾ وهو سبحانه وتعالى ﴿شَكُورٌ﴾.

***

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾

ولقد أوحينا إليك الحق فى آيات القرآن، الذى يُصَدِّق على ما أنزلنا من قبل على الرسل، يدعو لعبادة الله الواحد الأحد، ويأمر بعمل الصالحات، ويبشر المؤمنين بحسن الجزاء، وينذر الكافرين بأشد العقاب، والله خبير بما يصلح عباده، بصير بما يفعلون ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم أورثنا القرآن من اصطفيناه من عبادنا ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال أبو الدرداء: تلا رسول الله (ﷺ) هذه الآية، فقال «أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيُحبس حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة» ثم قال رسول الله (ﷺ): «وهم الذين قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾» رواه أحمد والبيهقى. وقال الماتريدى: [الظالم من أهل التوحيد والملة، والمقتصد قال بعضهم هو الذى يخلط عملاً صالحًا بعمل سيء، وقال بعضهم هو الذى يقوم بأداء الفرائض والأركان، وأما غير ذلك فلا، والسابق يخرج على وجهين: أحدهما سابق بالخيرات كلها، لا تقصير ولانقصان، أو سابق بالخيرات فيه تقصير ونقصان]، وقال المراغى: [ظالم لنفسه، مُفرِّط فى فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات ـ مقتصد مؤدّ للواجبات، تارك للمحرمات، تقع منه تارة بعض الهفوات، وحينًا يترك بعض المستحسنات ـ سابق بالخيرات بإذن الله، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات] ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وعندما يستقرون فى جنات ﴿عَدْنٍ﴾ الإقامة، يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ فلا حزن بعد اليوم ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وآمن ﴿شَكُورٌ﴾ لعباده الصالحين ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ الذى أنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة الدائمة والخلود فى الجنة ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا نرى فيها تعبًا ومشقة ﴿وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا إعياء.

***

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩)﴾

أما الكافرون، فجزاؤهم جهنم ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت فيستريحوا ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ جزاء كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ وهم يستغيثون ويصرخون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من النار، وأعدنا إلى الحياة مرة أخرى ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من قبل، ويرد عليهم ربهم ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ أولم نمد فى أعماركم ما يمكنكم من التدبر ومراجعة النفس وتذكر خالقكم وواجبكم، وبعثكم للحساب ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الذى أنذركم بعذاب الله لمن كفر ﴿فَذُوقُوا﴾ من الآن فصاعدًا عذاب النار ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ من مُخَلِّص ولا معين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية فى الصدور ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ كلٌّ يخلف مَن كان قبله، ويخلفه مَن بعده ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ عليه وزر هذا الكفر ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا﴾ أشد البغض والغضب ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ هلاكًا وخسرانًا.

***

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

اسأل يا محمد المشركين ماذا خلق أولئك الذين جعلتموهم شركاء لله؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم هم شركاء فى خلق السموات ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتابًا سماويًا، فهم يهتدون به ويتبينون الحق من الباطل ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾ إن ما يعد الكفار والمشركون بعضهم البعض من أنهم يحسنون صنعًا، وأنهم هم الذين يعرفون، وأنهم هم الذين يُصلحون، وأنهم هم الفائزون، كل ذلك ما هو إلا غرور الجاهلين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يحفظهما ويمنعهما من الزوال ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ إذا زالت السماوات والأرض، فهل هناك قوة تعيدهما؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ على عبيده ﴿غَفُورًا﴾ لمن يتوب توبة خالصة نصوحًا.

***

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾

أقسم أهل مكة لئن أرسل الله إليهم نذيراً ليكونن أكثر هداية واستقامة من اليهود أو النصارى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد (ﷺ) ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ مازادهم ما يتلى عليهم من القرآن إلا بعداً عن الصراط المستقيم، تكبراً ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ وما تكبرهم إلا انحطاط فى الأرض ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ ومكر شرير، ولن يعود إلا بالشر عليهم، فهل ينتظرون إلا أن يهلكهم الله كما أهلك القرون السابقة إن لم يتوبوا؟ تلك هى سنة الله ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

***

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ عجبًا لأهل مكة؛ فإنهم يمرون فى تجارتهم على الأمم السابقة التى كانت أشد قوة منهم، أفلا يعتبرون من هلاكهم؛ لأن الله لا يعجزه شىء فى السموات والأرض، فهو العليم بخلقه القدير على كل شىء؟ ولو يعاقب الله الناس ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من المعاصى والآثام ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾ من إنسان يدب عليها ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يوم البعث والحساب ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾

﴿ يسٓ (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة. قال محمد الغزالى: [الحرفان ليسا اسمًا للنبى (ﷺ)] ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ يقسم رب العالمين بقرآنه الحكيم ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ حقّا وصدقًا ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من يتبعه يفوز برضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الدنيا والآخرة، أنزله عليك الله العزيز الرحيم ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ لم يرسل الله إلى قومك رسولاً من قبل لينذرهم ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن الحق ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لقد سبق فى علم الله أن أكثرهم لن يؤمنوا، ويعود الضمير هنا على زعماء مكة الذين مات أكثرهم على الكفر، فقد استسلمت مكة للفتح المبين فى السنة الثامنة من الهجرة، ولم يسلم كلّ أهلها، وقد مضى من نزول سورة يس، وهى فى النصف الأول من السور المكية إلى الفتح حوالى خمسة عشر عامًا، مات خلالها الكثير من أولئك الزعماء على الكفر، وماتت قلة منهم، حتى بعد الفتح ولعدة سنوات دون أن تؤمن، وعلى سبيل المثال، تروى كتب السيرة أن أبا سفيان بعد فتح مكة، وبعد أن استسلم وأظهر الإسلام،

(*) إلا الآية ٤٥ فمدنية، وقال المراغى بل الآية ٤٦ هى المدنية.

شـارك فى غزوة حنين، وحين انهزم المسلمون فى بدايتها قال: «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ـ الأحمر ـ وصرخ جَبَلَةُ أو كَلَدَةُ بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم»(١)، ! بل إن أحد أحفاد أبى سفيان أنشد شعراً ينفى فيه الوحى والرسالة.

* * *

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾

الإقماح هو رفع الرأس مع غض البصر، أى أن أغلالهم الكثيرة بلغت ذقونهم فاضطروا لرفع الرأس، فى الوقت الذى يغضون فيه أبصارهم، فينظرون لأسفل، وكأن ذلك كناية عن تكبرهم الذى يجبرهم على رفع رؤوسهم بالباطل، فى الوقت الذى لا يستطيعون فيه إلا النظر لأسفل، فلا يستشرفون الهدى والسمو فى رسالة محمد (ﷺ). وبسبب ذلك التكبر الزائف، جعل الله من أمامهم سدّا ومن خلفهم سدّا، فلا يعملون حساب الغد، ولا يتعظون من عبر الماضى، وسواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم فلن يؤمنوا ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ وإنما يفيد الإنذار من اتبعوا آيات الله وخشوا ربهم واتقوه بالغيب، هؤلاء بشِّرهم يا محمد بغفران الله ذنوبهم، وبشرهم بالأجر والثواب الكريم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَىٰ ﴾ فى البعث والنشور، ونسجل كلّ ما عملوا وكلّ ما تركوه وسنوه مما يؤثر فى الخلق، وحتى خطاهم فى الخير أو الشر ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وكلّ أمر كبر أو صغر، طال أم قصر، بيناه فى سجل جامع عظيم.

* * *

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ

(١) راجع كتاب الرحيق المختوم ـ غزوة حنين.

﴿الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾

قص على قومك يا محمد ما حدث لأصحاب القرية؛ إذ أرسل الله لهم رسولين فكذبوهما، فأيدهما الله ـ سبحانه وتعالى ـ برسول ثالث، وقالوا لأصحاب القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فكذبوهم، هم الثلاثة، وقالوا ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ فأجابهم المرسلون ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)﴾ فإذا بأصحاب القرية يزدادون تكبرًا وتحديًا، ويقولون: إننا تشاءمنا منكم! إن لم تتوقفوا عن دعوتكم سوف نرجمكم وننزل بكم عذابًا أليمًا، فأجابوهم: تشاؤمكم من عند أنفسكم! إنما أنتم قوم ظالمون، لا تحبون الناصحين.

***

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

وجاء من طرف المدينة الآخر رجل مسرع، مشفق على قومه من العذاب، ينصحهم فى استرحام ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ إنهم لا يسألونكم أجرًا، فهم مهتدون، وكيف لا أعبد الذى ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقنى وأبدعنى، وكيف لا تعبدونه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كيف أتخذ من دون الله آلهة لا ترفع عنى الضر ولا ينفعونى فى الدنيا والآخرة، لو فعلت ذلك فإننى ﴿إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ اسمعوا نصيحتى يا قومى، فقد ﴿آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الحق ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ تعددت تأويلات المفسرين، فمنها أن أصحاب القرية قتلوه، فمات شهيدًا، ودخل الجنة فقال ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ومنها أن الله أوحى إليه بأنه غفر له ذنوبه وأراه جزاءه فى الجنة، فقال قولته الحميدة، وكل ذلك من أمور الغيب، نقف عندها ولا نجزم فيها بتأويل.

***